نـافـذة

الصمت سلاح

ذو حدّين، التفكّر والسفسطة ضدان لا يجتمعان، فالأول يؤثر الصمت الذي يفترض أن يكون نتاج المعرفة والعلم، ويكون الثاني ساعياً إلى فرض وجوده عبر الكلام بإرادة إملاء الفراغ، من يطّلب الوثوق بما يتحدث فعليه أن يؤمن بأنّ الكلام مشترك بين الجميع وحق للجميع، شريطة أن يكون مفيداً، وإذا أردنا إخفاء الحقائق وراء رموز وشيفرات، وارتبطنا بما لا يمكن التعبير عنه نكون كمن يقوم بنفي الآخر، أو وضع الحواجز والعوائق أمام أي انفتاح، وكلما تعزّز الوضوح كان الاتصال مع الجوهر سليماً وعميقاً، ونزعة التعاليم السرية تؤكد أهمية وجود المعرفة، وكشف أسرارها التي توصلك إلى كهن التديّن أو السياسة، وهذا يقتصر على بعض المتمرسين المتمتعين بملكات فطرية واكتساب قواعد وأسس المعرفة والعلم، فإذا فشل الإنسان صمت، وإذا كتم ظهر كالمسالم الأبكم، والمثقفون مؤكد أنهم على درجات يتكلمون كثيراً، وينادون بحرية التعبير، وبحماسة عالية، أما إيمانهم فهو بشكل عام قليل، ونادراً ما نرى وفاءهم لعقلانية معينة حين تبادلهم الأحاديث التخصّصية الدقيقة.

الصمت موقف يقع بين الزمن والقدر، فالزمن عنصر الحياة المادية المهمة للحركة الحياتية، والقدر حاجز الزمن متغلغل في اللامادي، منه يستشعر الإنسان بأنه يراقبه كي يعود إليه حين نشوء أزماته، بحكم أن العقل الباطن الذي يسكن فيه الكلي بصمت لا يعلم عنه أحد إلا حامله، أما الأحاسيس فهي المشترك بين الناس، إلا أن تفاوتها فيما بينهم يظهر لنا درجاتهم الزمنية والقدرية، والعقل يقف بينهما، فالأفكار لا تعكس الموضوع المفكر به؛ بل عقلية الذات المفكرة، لأن العقل موضوع غامض يتفتق عنه مواضيع مقبولة أو مبهمة حسب وجوده في البيئة ومتطلباتها، فإذا لم يصل المثقف إلى مستوى المعرفة بما يطرحه وأغناه بمحيطه يكون أقرب إلى السفسطة في كلامه عن العلم أو المعرفة، والصمت هنا يكون أفضل له، وهذا ما يرفع عنه غطاءها الذي يشير عليه بأنه غوغائي، أو فعلاً يجسد لغة حالة أو عاقلة. لابدّ من إيجاد البدائل عن الصمت والفشل والزهد، والذهاب إلى مزج العلم بالإيمان ركني الحياة، في هذه المرحلة التي لا غنى عنها إذا أرادت التطور، ويجب أن تحياها الشعوب الصامتة، وإلا فسيكون الذهاب إلى العدمية غير المبالية، ونتائجها التي تعني هدم الإنسان الذي يتجه إلى الله ذريعةً للهرب من واقعه البشري، مخلصاً كان أم منافقاً، وهذا لا يرتبط بكمية الإيمان به، إنما هو الأمر البشري الذي يسعى لتعليق همومه ونسبها إليه، فإذا فقد الإنسان حس الانتقال نحو الأفضل فقد الإيمان بأي شيء سوى إيمانه بأن الله في خدمة الأقوياء، وهذا بحد ذاته ما يزيد من ضعفه وعدم قدرته على الكلام، وأي خطوة حاسمة تمكن الإنسان من القيام بها تعني تحسين آماله وأحلامه وأعماله، ومشكلة الناس ومجتمعاتها ودولها تكبر حينما يبدأ الصمت بحفر مجراه، بينما تكون الحاجة لفهم أن الإيمان بالفضيلة قد يمنع الخطيئة أمام القيام بفعل الفضيلة، الذي يسهم في ارتكاب الخطيئة، أي إيقاف الفعل بانتظار تقديم الفضيلة، فإذا تراكمت ولم تصلح تؤدي إلى شنّ الحروب، الحروب القذرة، لأنها تتقدم بعد أن تعلم أن الخديعة الكبرى قد أنجزت لها مهامها المؤلفة من مجموعة من الأكاذيب التي على رأسها تكون أكذوبة السلام، أكذوبة حرية التعبير وإرادة الشعب وضرورة تحقيق الديمقراطية، والصمت الذي يقابل هذه الأكاذيب يؤدي حتماً إلى التأخر عن الركب، ومن ثم الفشل، والمواجهة العلمية العاقلة تؤدي إلى فضح كل ذلك، فسلسلة الأكاذيب والأضاليل التي ترافق الصمت تؤدي إلى نشوء أقذر الحروب السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية وحتى الدينية، وجميعها إن لم يتم لجمها وكشفها يؤدي إلى الحروب العسكرية، وهنا أجدني أفصل بين الصمت الخائف أو الجبان، والصمت الحكيم الذي يحمل لغة التأمل والافتراض، بأن تخرج منه لغة جديدة تؤدي إلى أفعال جيدة جميلة ومبهرة.

الصمت نوعان، صمت إذا تحدث تتمنى لو لم يتحدث، وصمت يجذبك إليه إذا تحدث، منجزاً تعلقك به وبكلامه، ناهيكم عن صمت الهدوء والخبرة الذي يكون نتاج الحكمة، هذا الذي يستند إلى إستراتيجية النصر وعدم تمكين العدو من الانتصار.

إن عدم فعل الأفضل ضمن المتاح من القدرات يؤدي إلى وقوع الظلم على المتأخر عن الفعل، لأن الله صامت، لا يظلم ولا يتدخل في الإصلاح، هذه المهمة المعقدة المنحصرة بيد الإنسان، فهو الذي يظلم نفسه والآخر بصمته وكلامه، وهو الذي يصلح، لأنه صاحب الحاجة السليمة أو الخَربة.

الصمت جزء مهم من فلسفة الصبر عند العاقل المبدع والمدير والمتفاعل في شؤون الحياة، لكنه لا يأتي بالعصمة، ولا يأخذ الإنسان حامله إلى الوصاية أو التصوّف، أو حتى لا ينبئ عن إيصاله لمهام القوام عليه، ولا إلى أطوار الأقوام الذين هو منهم. ولعلمكم أيها السادة القراء، إن الأخذ بالعلم يمنحنا فرصة نادرة للفهم، ويسمح لنا بأن نخطو خطوات مشابهة لتلك التي حدثت في عصر النهضة كله، التي فرّقت بين الدين وجميع العلوم والفنون، ومن خلال تلك النهضة عرفت أوروبا أن العلم كل العلوم بصنوفه لا يجري بعد موتنا، وعلم السماء صامت، وهو كذلك، لكي يتعلم الإنسان منه، ومن ثم يتكلم على أرضه ما لم نعرف، فلولا صمت السماء لما عرفنا أننا والأرض حقيقة، لأنها دعتنا للتفكر والتأمل بما نتفكر، فتحدّد الأشياء، وبعدها تتحول إلى معرفة، تبني في الفكر المعرفة التي تتحدث، فتحدث الكلام بعد صمت يمنح النتائج المؤثرة إيجاباً أو سلباً.

الصمت أحياناً يكون من أجل امتصاص الصدمة، لأنه يشكل مسألة فكرية تخضع لفرضية فلسفية، عمادها الجوهر وفكرة الحركة، وهما اللتان تضعان العقل في منزلة الرقي أو الحضيض، وإني لأعتبر الصمت جوهراً روحانياً يفترض أن يأخذ بالإنسان إلى البحث عن استكمال ما ينقصه، الفكر أولاً ومن ثم الجسد، لأن التأثير الأول والأخير يكون من حاسة العقل على الجسد الصامت الذي لا يتحرك إلا بأوامر العقل الذي يحولها إلى نطق، فمتى يصمت العقل، ومتى يتحدث، ومن أجل ماذا؟ هنا تظهر المسألة الكونية التي عمادها الإنسان وآلياته المتكلمة والصامتة والمتحركة، فإن لم يكن الكلام جامعاً لامعاً وتمتع بالحكمة ورؤوس العظات فالصمت خليق بأن يكون هو السائد، وهو السيد الذي لا يتحدث بحكم رقابته لمجريات الأمور وضرورة متابعته أولاً، ومن ثم نكلمه كيف بك تقرأ وأنت تتكلم؟ وكيف بك تسمع وأنت تتحدث؟ إذاً لابد من الصمت من أجل الاستماع، ومن ثم التحليل والتحكم.

ندرة الصمت الحكيم تظهر ندرة الفكر، وتكثر من السفسطة والثرثرة والغوغاء وادعاء الإيمان والعلم والمعرفة، وللأسف ما أكثر ما نشهده في زمننا المعاصر من ثرثرات لا تسمن ولا تغني، بل أكثر من ذلك تؤدي إلى عرقلة البناء والمسير إلى الأمام، هؤلاء الذين يدّعون فهمه ينطبق عليهم القول: «صمت دهراً ونطق فجراً»، وهنا أقترب من الصمت تاركاً الفسحات للشباب وملكاتهم الخلاقة، على الرغم من عدم قدرتهم على زخرفتها، لكنها غدت أكثر من مقبولة أمام لغة الكهول والشيوخ، وإن كانوا يزاحموننا، فهذا حقهم، فهم القادرون على الإصلاح.

أقول: لنذهب إلى الصمت قليلاً، ولنتابع عبر المراقبة والتوجيه، شريطة أن نصل إلى ما نريد، فالصمت الإيجابي علاج فعّال في كثير من محاور الحياة، وسلاح دقيق يستخدم قبل لحظات الحسم، وغدا من الضرورة امتلاك فنونه.

د. نبيل طعمة

في ذكرى رحيله الثالثة...
رفيق سبيعي أسس للفن وتربع في الزعامة

جُمان بركات

استقى مفردات شخصيته «أبو صيّاح» من المحيط الذي نشأ فيه في حي البزورية الدمشقي، فهو لم يؤدها يوماً على سبيل التمثيل وإنما عاشها، ورنين لهجتها كان يتردد في أذهانه منذ الصغر، شخصية «أبو صيّاح» الخالدة في أذهان المشاهدين السوريين والعرب كصورة متكاملة لابن البلد، صاحب النخوة والمهابة وخفّة الظل، على الرغم من حضورها الطاغي في الذاكرة الدرامية العربية إلا أنها لا تختصر المسيرة الإبداعية للراحل رفيق سبيعي التي امتدت لأكثر من سبعين عاماً.

لُقب بفنان الشعب وهو اللقب الفريد الذي منح لرفيق سبيعي من الرئيس الراحل حافظ الأسد، ليتابع بعدها إبداعاته التي لاقت تكريمات عدة كان أهمها وسام الاستحقاق من الدرجة الممتازة الذي منحه إياه الرئيس بشار الأسد في عام ٢٠٠٨، وفي الذكرى السنوية الثالثة لرحيل الفنان القدير الذي نشر ابنه المخرج سيف الدين سبيعي صورة لوالده عبر حسابه على الإنستغرام مؤكداً أن رحيل والده كسر ظهره وقال في تعليقه على الصورة: «اليوم تمر ثلاث سنوات على رحيلك يا أبي، ثلاث سنوات من الغياب، ثلاث سنوات وأنا أحاول الوقوف على قدمي بعد أن كسر رحيلك ظهري، نعم لقد كسر ظهري هذا الرحيل يا زعيم».

مشواره الفني

رفيق سبيعي أجمل من أدى دور كبير الحارة والمختار أو الزعيم في المسلسلات الشامية، فهو المبدع فنياً وأخلاقياً وإنسانياً، والمحب لفنه والمحبوب من أبناء وطنه، قدم الأعمال الكثيرة التي حفرت في ذاكرة الفن العربي عامة والسوري خاصة، فهو من جيل المؤسسين الذين صدّروا الدراما السورية إلى الدنيا، شبّ رفيق سبيعي على حلم الفن، متحدياً إرادة العائلة وظنون المحيط، فلم يكن الأمر سهلاً في دمشق حينها، حيث كان يطلق على الممثلين لقب «المشخصاتي»، وكان يعتبر التمثيل عيباً اجتماعياً ما اضطره إلى البدء باسم فني هو «رفيق سليمان». وأبدع «الزعيم» في فن المونولوج الذي كان فناً حديثاً وقتها قياساً إلى تلك الفترة التي لم يبرع فيها الكثيرون كبراعة السبيعي، ففي عام ١٩٦٢ ظهر سبيعي في برنامج «نهوند» التمثيلي بشخصية شعبية «سعدو حنّي كفك»، وقدم أغنية بعنوان «حبك بقلبي دوم ساكن مطرحو».

وشارك عبر إذاعة دمشق في برنامج للأغاني الضاحكة بشخصية «أبو صياح»، وتوالت أغنياته التي نالت حظها من الشهرة مثل «تمام تمام هدا الكلام»، و«شروال أبو صياح»، و«شرم برم»، وكانت أغنيته «لاتزعلي ياشام» عام ٢٠١٦ خاتمة رحلته الغنائية، وقدم أيضاً برنامجه الشهير «حكواتي الفن» سارداً فيه أسراراً من الفن السوري.

حياته

ولد رفيق سبيعي في الأول من شباط عام ١٩٣٠، بدأ في عمر ثماني سنوات يحضر الموالد النبوية برفقة أخيه، وكثيراً ما كان ينسل راكضاً باتجاه المنشدين، مغنياً معهم التواشيح والأناشيد الدينية، وفي أواخر الأربعينيات قدم مقاطع كوميدية مرتجلة على مسارح دمشق ونواديها الأهلية، ثم انتقل إلى الغناء والتمثيل في فرق فنية عدة كفرقة «علي العريس» و«سعد الدين بقدونس» و«عبد اللطيف فتحي» و«البيروتي» و«محمد علي عبدو».

وفي طفولته كان حضوره لافتاً في أعراس حي البزورية فقد كان يغني لكارم محمود وعبد العزيز محمود وعبد الغني السيد، إضافة إلى براعته بأداء منولوجات شكوكو وإسماعيل ياسين، وفي المنزل كان لا يحلو له مذاكرة دروسه إلا على صوت أسطوانات أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، وكثيراً ما كانت تستدعيه والدته ليغني لنساء الجيران، حين يجتمعن في الدار ليستمتعن بجمال صوته. ولم يكمل دراسته بعد الانتهاء من المرحلة الابتدائية وبدأ يعمل خياطاً ليساعد والده في تحمل أعباء ومصاريف المنزل، وعمل في الخياطة ثلاث سنوات لكنه أخفق في هذه المهنة، فبدأ يشارك في نوادي الكشافة وظهرت مواهبه في الغناء والعزف والتمثيل في المسرح، وجسد مختلف الشخصيات في أعماله وترك بصمات متميزة في الحركة المسرحية، ولاحقاً في السينما والدراما السورية ليستحق وبكل جدارة لقب «فنان الشعب».

المسرح والسينما والتلفزيون

أسهم فنان الشعب في تأسيس عدد من الفرق المسرحية الناشئة بعد الاستقلال عام ١٩٤٦، حيث صنع شخصيته الأشهر «أبو صياح» قبضاي الحارة الشامية بزيه الدمشقي الفلكلوري الأصيل، وبعد سنوات قليلة على بداية عمله المسرحي أواخر الأربعينيات وتقديمه عدداً من الأدوار المرتجلة، كانت النقلة الفنية في عام ١٩٥٦ مع تأسيس المسرح الحر الذي عمل فيه معظم رواد الحركة المسرحية السورية، حيث بدأ بتقديم مسرحيات كاملة إلى جانب فقرات غنائية اعتادت الفرق المسرحية تقديمها في ذلك الزمان. ومن المسرحيات الأولى التي شارك فيها «بالمقلوب»، و«مرتي قمر صناعي»، و«طاسة الرعبة»، وشارك في مسرحية نالت شهرة ملحوظة في أواخر الخمسينيات هي مسرحية «صابر أفندي» ١٩٥٨، من تأليف الراحل حكمت محسن. كما كان رفيق سبيعي من بين الفنانين السوريين المؤسسين للمسرح القومي عام ١٩٦٠، ومن أهم المسرحيات التي شارك فيها مع المسرح القومي «أبطال بلدنا» عام ١٩٦٠، و«البورجوازي النبيل» عام ١٩٦٢، و«الأشباح» عام ١٩٦٢، و«مدرسة الفضائح» عام ١٩٦٣، و«الإخوة كارامازوف»، و«الاستثناء والقاعدة» عام ١٩٦٤. وبعد غياب لسنوات عاد سبيعي إلى المسرح عام ١٩٩٦ ليشارك في مسرحية «مات ثلاث مرات» بتوقيع المخرج حاتم علي، ثم شارك عام ٢٠٠١ في مسرحية «شو هالحكي» من إعداد وإخراج كل من سيف الدين السبيعي ونضال سيجري وجلال شموط عن نص لزكريا تامر.

وفي السينما، قدم رفيق سبيعي ما يزيد على الخمسين فيلماً، أحدثها «سوريون» في عام ٢٠١٥، ومن أبرز مشاركاته السينمائية دوراه في فيلمي السيدة فيروز الشهيرين «سفربلك» و«بنت الحارس»، كما شارك في مجموعة أفلام سورية أخرى منها «أحلام المدينة» و«الليل».

ومن أهم أدواره التلفزيونية دور «الزعيم» في مسلسل «أيام شامية»، و«الخشخاش»، و«دمشق يا بسمة الحزن»، و«العبابيد»، و«مبروك»، و«صقر قريش»، و«مرزوق على جميع الجبهات»، و«ليالي الصالحية»، و«الحصرم الشامي»، و«أهل الراية» ٢٠٠٨. وكانت آخر مشاركاته في مسلسل «حرائر» عام ٢٠١٥، وحاول رفيق سبيعي تقديم أدوار يؤكد فيها حضوره كممثل بعيداً من صورة «أبو صيّاح»، وتمكن من ذلك بنجاح عبر تقديمه لشخصية «طوطح» اليهودي في مسلسل «طالع الفضة» عام ٢٠١١.

مقهى «النوفرة» ينبض بحيوية روح الحياة
صالح الرباط لـ«الوطن»: الناس تزورنا وكأنها تتمسّك بالشام وتراثها من خلال هذا المقهى

سوسن صيداوي

أمر طبيعي أن يكون لك إرثاً عائلياً، ولكن من الصعوبة بمكان أن تحافظ على هذا الإرث، لا بل أن تسمح لأولادك ولأحفادك بمشاركتك به، ليمتدّ إلى سنين طوال بل إلى المئات منها، ومن جهة أخرى كيف إذا كان إرثاً له مكانته الخاصة لكونه من أحد عناصر التراث المادي وأيضاً التراث اللامادي. الحديث يعود إلى مقهى (النوفرة) في دمشق، هذا المكان الذي صيته وصل لكل المحافظات السورية، وحتى اسمه طرق مسمع الأجانب القادمين إلى سورية، والذين لابدّ لهم أثناء زياراتهم لدمشق أن يقصدوا المكان.

مرآة قلب

السنين الطويلة لم تغيّر من هيئة مقهى (النوفرة)، وحتى أعمال الترميم التي يقوم بها أصحاب القهوة تكون داعمة ومثبتة لأساساته الحجرية والخشبية التي تَثبّتت محبة في القلوب وذاكرة دمشقية معطرة بعطر النارنج والياسمين والورد البلدي. اليوم الظهور والأكتاف لزوار المقهى تستند على- وتسنُد- الجدار المقوّس- بالنظر- والذي لا خطورة بتقوّسه نحو الأمام، الكل يصطف ويجلس بقرب الآخر ليكونوا جميعاً عائلة واحدة، ترتاح ضمن وقت قرروا فيه احتساء المشروبات التقليدية الساخنة والباردة مع الأركيلة أو التنباك. وفي الحقيقة ما أسرني ذلك اليوم هو نظرة شباب وفتيات ببداية العشرينيات، مع استغراقهم للسمع أثناء سرد الحكواتي للقصة باللغة العربية الفصحى، وكيف حقا أحداث القصة وأسلوب السرد جعلهم ينسَون هواتفهم النقالة وكل من حولهم، إضافة إلى تأثرهم ودهشتهم للأحداث. ضحكت وسخرت من العصرنة التي تُلهينا عما هو جميل، ليبقى حقاً للكتاب وللحتوتة فعلهما القوي في القلوب والنفوس. مقهى (النوفرة) ينبض بالحيوية وروح الحياة المستمرة، جامعاً الزوار وسط دمشق من كل صوب وحدب، فكل من يرتاد الحارات القديمة لابدّ أن يمر من أمامه، فهو يقع خلف الجامع الأموي، ننزل إليه بدرجات يمضي فوقها يومياً آلاف الأرجل لتتجه منها نحو ساحته المرصوفة بالأحجار البازلتية السوداء القديمة، وعندما تصل لن تجد مكاناً مباشرة، فالعتبات الثلاث والشرفات تعجّ بالزوار، وحتى الطاولات الـ٣٦، الداخلية والخارجية كلّها(كومبيله) وعليك الانتظار كي تجد طاولة تلقي عليها همومك الفكرية وتعبك الجسدي من بعد تسوق طويل في الأسواق الدمشقية القديمة.

للمقهى رواية

تعود تسمية المقهى إلى النافورة أو البحرة التي تجاور المكان، والتي كانت مياهها تتدفق ملطفة الجو الحار في الصيف، ورغم توقفها منذ ما يزيد على نصف قرن، إلا أن تسمية المقهى لم تتغير، فكيف لا وهو المورث أبّا عن جد، وفي حديث عن تفاصيل أكثر التقينا الحاج صالح أحمد الرباط، الذي يقوم بإدارة المكان مع أخيه والأبناء، ليقول «تأتي شهرة (النوفرة) لوجودها وسط مجمع أثري تراثي دمشقي عريق، فهي تقع في منطقة تتفرع منها كل حارات دمشق القديمة، ومن ثم كل من يريد التسوق أو التجول في سوق الحميدية أو زيارة الجامع الأموي، سيمر من أمام مقهانا وستجذبه أيضاً عمارته القديمة وخشبه العتيق رغم صغر مساحته».

وعن هذا الإرث العائلي الذي توارثته الأجيال من الجدّ للأب للأبناء يتابع الحاج صالح مسيرة أبيه ويدير المقهى مع أخيه والأولاد، مستخدماً دفتراً وقلماً كي يجري الحسابات بالطريقة التقليدية، فيقول: «منذ ولادتي وأنا موجود بالنوفرة، فهي شريكة حياتي في كل المراحل، لا يمكنني أن أتغيّب عنها، وصحيح أنها إرث عائلي من والدي وجدي، ولكنها أيضاً إرث تراثي وطني مهم، فلا أحد يأتي الشام إلا ويجلس ويرتاح، سواء أكان الزوار من الشام أم من باقي المحافظات -وحتى الأجانب- الكل يأتي إلينا ليجلس ويستشعر البساطة والراحة في جنبات المقهى. وبالنسبة للهيئة المعمارية للمكان ولديكوره، لا يمكننا أن نغيرها لأنها تمنح المكان سبباً لخصوصيته، وصحيح أن الجدار الخشبي الخارجي تقوّص مع مرور الزمن، إلا أنه متين وثابت، فنحن نقوم بأعمال الترميم بين وقت وآخر، لنزيد من ثبات الأعمدة والسقف الخشبي، ونقوم بها من دون أن نُفسد هوية المكان الأصيلة».

مرتادو المنطقة يجلسون في المقهى لينالوا قسطاً من الراحة وليتمتعوا بالشاي الخمير والزهورات الشامية إلى جانب تدخين الأركيلة أو التنباك، وعن الأسعار عقّب الحاج صالح «أسعارنا شعبية تناسب الجميع، فالكل قادر على ارتياد المقهى والتمتع بمشروباته، حتى في ظل الحصار الاقتصادي على سورية وارتفاع الدولار بمواجهة الليرة السورية، ورغم كل الضغوطات بقيت الأسعار مناسبة، وهذا من الأمور التي تجعل زبائننا منتمين إلينا، وبالفعل هناك منهم من يأتي إلينا بشكل يومي وهم زبائن دائمون لسنوات طويلة، هذه العلاقة بين المقهى والزبائن جميلة جداً، وتؤكد على حب الزوار لدمشق وللأحياء القديمة، وللتمسك بالتراث السوري بكل تفاصيله».

إضافة إلى أن الفئة الشابة والفنانين هم من رواد المقهى وحول هذا الجانب أضاف: «كان يزورنا الكثير من الفنانين منهم دريد لحام وناجي جبر، وحتى اليوم يأتينا منهم بين الحين والآخر، وكذلك الفئة الشابة من الشبان والشابات ترتاد دائماً المقهى، فكل من يحب الشام يأتي إلينا، وكل من هو متعلّق بالحارات القديمة يأتي إلينا، لهذا مقهى (النوفرة) مستمر، وحتى في سني الأزمة، لم يختلف أي شيء، كنا نسمع الأصوات ولكن الكل كان يأتي ويجلس ويمضي وقته هنا، وكأن لا شيء يدور حولنا، بل أحب أن أشير إلى أن الناس كانت تزورنا وكأنها تتمسك بالشام من خلال هذا المقهى، وأدعو الله أن تدوم هذه المحبة وتبقى ديارنا عامرة بها».

تفانٍ بالعمل

مَن لا يعرف العم أبو حسين؟ فكل من يقصد المقهى لابد أن ينادي له، كي يؤمّن له طاولة يجلس عليها ومن ثم طلباته، ولا يمكن أن يمر يوم إلا ونراه فهو يعمل بالمقهى ما يفوق العشرين عاماً، وفي تفاصيل أكثر حدثنا: «أنا اسمي أبو حسين العبد، أعمل في النوفرة منذ اثنين وعشرين عاماً، مقهى النوفرة مقهى شعبي وكل من يأتي إليه يشعر أنه يجلس في منزله لبساطة المكان والخدمات، إضافة إلى العفوية التي تملأ المكان والبعيدة عن المستوى الاجتماعي والثقافي والمالي للزوار الذين يأتون إلينا من المحافظات السورية كلها، هذا وحتى الأجانب يعلمون بالمقهى».

وعن البناء وصموده في مواجهة الزمن يضيف: «البناء قديم وصحيح واجهته مائلة، لكن ما من خطر فهي مدعمة جيداً، ولا يمكننا أن نغير من هيئته المعمارية لأنه تراث قديم، فالخشب قديم جداً والحجارة أيضا، وفكرة التغيير مرفوضة لأن الزوار يأتون إلينا لهذه الخصوصية».

وعن طبيعة طباع الزبائن قال أبو حسين: «تجمع (النوفرة) أشخاصاً ينتمون لكل شرائح المجتمع السوري، فمنهم من هو بغاية اللطف بعكس زبائن يكونون مزعوجين ومستفزّين، ولكننا دائماً نستوعبهم ونقدم لهم طلباتهم ولابد أن نعمل على إسعادهم مهما حاولوا عبثاً إثارة المشاكل».

ما يثير الاستغراب بأن أبا حسين من شدة ولعه بعمله وبالمكان أشار خلال حديثه إلى أنه حتى في أيام عطلته يأتي المقهى، ليتابع خاتماً: «لم أتعب يوماً من العمل هنا وحتى في أيام عطلتي آتي، لا أنكر أنني حاولت أن أغيّر عملي ولكنني لم أستطع، أجد راحتي هنا وساعات العمل حتى لو كانت طويلة فهي لا تزعجني على الإطلاق».

تَزوّج المقهى

بقي يرتاد القهوة نحو خمسة وثلاثين عاماً، فهو يجد بـ(النوفرة) ونيسه، يأتي بشكل يومي ليدخن التنباك ويشرب الشاي الخمير، ولم يُثنِ عادته أي ظرف أو طقس أو اختلاف توقيت بين الشتاء أو الصيف، ليضيف أبو محمد: «قبل الأزمة كنت آتي بشكل يومي من مخيم اليرموك إلى هنا، واليوم آتي من مشروع دمر، لقد اعتدت على الجلوس هنا وبُعد المسافة لا يهمني أبداً، أجد أصدقائي هنا وأجد المتعة بتدخيني للتنباك وشرب الشاي الخمير اللذين حافظا على طعمها منذ أكثر من ثلاثين عاماً، فلا شيء تغيّر».

وفي سؤالنا هل حاول مرة أن يرتاد مقاهي أخرى وبأنه قد تزوج المقهى؟ وهل تغار عائلته من هذا الارتباط اليومي؟ ردّ ضاحكاً: «بالصدفة أذهب إلى مكان آخر، ولكنني معتاد على القدوم وقضاء المساء، وعائلتي اعتادت على هذا ولا يزعجهم الأمر لأنني أجد راحتي ومتعتي في هذا المكان على الرغم من كثرة المقاهي. ربما يربطني بهذا المكان حبي للحارات الدمشقية القديمة، فأنا أمشي فيها بشكل يومي كي أصل إلى هنا، فراحتي مستمرة منذ خمسة وثلاثين عاماً».